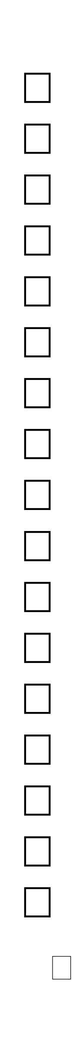
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

الحج والعمـرة
مناسك وأسرار

إعداد

أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤١هـ / ٢٠١٩م





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ للهِ ﴾

(البقرة : ١٩٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـد :

فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام لمن استطاع إليه سبيلا ، يقول الحق سبحانه : "وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا"، ويقول سبحانه : "وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ"، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ البَيْتِ" ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ حَجَّ فَلَمْ

يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوم وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " من خرج يؤم هذا البيت حاجًّا أو معتمرًا كان مضمونًا على الله (عز وجل) إن قبضه أن يدخله الجنة ، وإن ردَّه ردَّه بأجر وغنيمة " ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ ، إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ ، وَإِنْ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ " ، ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ ، وَالْعُمْـرَةُ إِلَى الْعُمْـرَةِ كَفَّـارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَـا".

وهو دعوة أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) حيث دعا ربه: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ".

وهو رحلة إيمانية تهفو إليها نفوس المسلمين جميعًا ، آملين عفو ربهم ومغفرة ذنوبهم ، وأن يعودوا – كما بشرهم

نبينا (صلى الله عليه وسلم) – برءاء من الخطايا كما ولدتهم أمهاتهم .

وقد حاولت من واقع التجربة أن أسجل خواطري حـول الحج وما عشته أو عايشته من أسرار بعض مناسكه ، مع خلاصة ميسرة لأعمال الحج والعمرة ، سائلين الله العلي العظيم الرضا والقبول والسداد والتوفيق .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ،،،

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

□

خلاصة ميسرة لأعمال الحج والعمرة

أولا : أعمال العمرة :

أعمال العمرة تبدأ بالنية كسائر الأعمال الصالحة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " (١) ، ثم الإحرام من الميقات ، وليس معنى ذلك عدم جواز الإحرام أو التلبس به قبل الميقات ، بل المراد ألا يتعدى الإنسان الميقات أو يتخطاه غير محرم ، ويستحب أن يصلي المحرم ركعتين سنة الإحرام ، فإذا وصل إلى الميقات أهلّ بالتلبية .

فإذا وصل إلى مكة ورأى البيت الحرام استقبله داعيًا بقوله : اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا الْبَيْتَ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا وَتَكْرِيمًا وَمَهَابَةً

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب فِيمَا عُنِيَ بِهِ الطَّلاَقُ وَالنِّيَّاتُ ، حديث رقم ٢٢٠٣ .

وَزِدْ مَنْ شَرّفَهُ وَكَرّمَهُ مِمَّنْ حَجَّهُ وَاعْتَمَرَهُ تَشْرِيفًا وَتَكْرِيمًا وَتَعْظِيمًا وَبِرًّا ، أو بما تيسر له من الدعاء .

ثم يشرع في الطواف سبعًا ، تبدأ من الحجر الأسعد المشار إليه حاليًا بالإضاءة الخضراء في صحن المطاف ، بحيث تكون الكعبة المشرفة على يسار المعتمر ، وإن كان من المستحب استلامه وتقبيله للمستطيع في غير أوقات الزحام ، فإن الحكمة تقتضي الاكتفاء بالإشارة إليه في أوقات الزحام، رحمة بالضعفاء وكبار السن ، ومنعًا لما قد يترتب على المزاحمة من أذى الآخرين .

فإذا ما انتهى المعتمر من الطواف صلى ركعتين سنة الطواف خلف مقام سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في الجهة الواقعة ما بين حجر سيدنا إسماعيل (عليه السلام) والحجر الأسعد ، أو فيما تيسر له من المسجد الحرام ، ويستحب أن يشرب من ماء زمزم الموجود في سائر جنبات المسجد والمسعى، ثم يأتي المسعى فيبدأ بالصفا مستقبلاً الكعبة داعيًا، عِلمًا بأن السعي من الصفا إلى المروة شوط والعودة من

المروة إلى الصفا شوط آخر ، فتكون البداية بالصفا والنهاية بالمروة ، ويستحب الرَّمَل أي الإسراع بين الميلين المحدد فوقهما بالضوء الأخضر ، ويصح السعي في أي دور من أدوار المسعى ، فإذا ما انتهى من السعي قام بالحلق أو التقصير ، وبهذا تنتهي أعمال العمرة .

والخلاصة : أن أعمال العمرة بعد النية ، هي : الإحرام من الميقات ، والطواف ، والسعي ، والحلق أو التقصير ، مع ما يصاحب ذلك من السنن والمستحبات .

ثانيًا: أعمال الحج :

أولاً : حج المفرد ، وهو الذي نوى الحج فقط ، وحج المتمتع ، الذي نوى الحج والعمرة معًا ، حيث يبدأ الحاج المتمتع بأعمال العمرة أولاً حتى ينتهي منها ، ثم يتحلل تحللا تامًّا من إحرامه ، فإذا ما أهل وقت الحج أحرم به .

وهذان " المفرد والمتمتع" يكون حج كل منهما على النحو التالي :

الإحرام بالحج يوم الثامن من ذي الحجة (أو قبله لمن أراد) ، والتوجه إلى منى للمبيت بها ليلة التاسع لمن تيسر له ذلك ، فإن شق عليه أو كان الفوج الذي خرج معه سيتجه مباشرةً إلى عرفات فلا حرج في ذلك .

ويصعد الحاج إلى عرفات سواء من منى أو من مكان إقامته بمكة أو ضواحيها ، ليقضي بها يوم التاسع ، ويصلي بها الظهر والعصر جمع تقديم ، ويجتهد في الذكر والدعاء حتى موعد النفرة إلى مزدلفة بعد غروب شمس يوم عرفة ، فيأتي مزدلفة ، فيصلي بها المغرب والعشاء جمع تأخير ، ويبيت بها إن تيسر أو إلى منتصف الليل دون إنكار على هذا أو ذاك .

ويتجه من مزدلفة إلى رمي جمرة العقبة الكبرى ، ويجزئه عن الهدي دفع الصك في إحدى الجهات المعتمدة من المملكة العربية السعودية ، ولا يجوز دفعه لأي جهة خارجها ، وهو واجب على المتمتع وسنة للمفرد ، ويجزئه دفعه في أي وقت من تاريخ وصوله إلى المملكة العربية السعودية وفتحها لباب تلقي صكوك الحج .

ثم يأتي إلى الحرم الشريف فيطوف طواف الإفاضة سبعًا – على النحو الذي بيناه في الحديث عن أعمال العمرة – ثم الصلاة خلف مقام سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أو ماتيسر له من المسجد الحرام ، ثم الشرب من ماء زمزم ، ثم السعي بين الصفا والمروة على النحو الذي بيناه في أعمال العمرة أيضًا، ثم الحلق أو التقصير ، والحلق أولى ؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ ، قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ ، قَالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ ، قَالَ : وَلِلْمُقَصِّرِينَ " [1] .

وله أن يبدأ تلك الأعمال بعد النفرة من مزدلفة بطواف الركن بعد منتصف ليلة يوم النحر ثم يحلق أو يقصر .

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب الْحَلْقِ وَالتَّقْصِيرِ عِنْدَ الإِحْلاَلِ ، حديث رقم ١٧٢٨. وصحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب تَفْضِيلِ الْحَلْقِ عَلَى التَّقْصِيرِ وَجَوَازِ التَّقْصِيرِ ، حديث رقم ٣٢٠٨.

وله أن يتحلل التحلل الأصغر الذي يباح به كل شيء للمحرم إلا الجماع بأداء أمرين من الأمور الثلاثة التالية (رمي جمرة العقبة الكبرى ، وطواف الركن المعروف بطواف الإفاضة ، والحلق أو التقصير) .

ويجوز عند المالكية أن يتحلل التحلل الأصغر بمجرد رمي جمرة العقبة الكبرى (١) .

ولا يتم التحلل الأكبر إلا بالإتيان بالأمور الثلاثة (رمي جمرة العقبة الكبرى ، وطواف الركن ، والحلق أو التقصير) .

ويذهب الحاج إلى منى للمبيت بها في الوقت الذي يتيسر له من يوم العاشر .

وفي أيام التشريق يبقى الحاج في منى يومين لمن أراد أن يتعجل وثلاثة لمن أراد أن يتم ، حيث يقول الحق سبحانه : " وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي

---

(١) انظر : بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ١٣٤/٢، دار الحديث ، القاهرة .

يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ " (١) ، فإن كان من الضعفاء الذين يشق عليهم الإقامة بمنى فله أن يقيم في أي مكان يتيسر له قريبًا منها أو بمكة ، وله أن يوكل غيره في الرمي إذا عجز عن أدائه بنفسه ، كما أن له أن يجمع الرمي كله في يوم واحد تفاديًا للزحام أو تعجيلاً للسفر ، أو مرافقة الفوج الذي قدم معه ، ومن قدر على المبيت بمنى من غير عنت أو مشقة فعليه أن يبيت بها .

وإذا أراد الحاج أن يغادر مكة فيستحب له أن يطوف طواف الوداع إن استطاع ، فإن كان البيت مزدحمًا بالطائفين بما يشق عليه فلا يتعين عليه ؛ لأنه في حكم غير المستطيع ، ويجوز له تحسبًا لذلك أن ينويه مع طواف الإفاضة أو الركن ، ويجزئه ذلك من غير إثم ، فإن تيسر له بعد ذلك أداه وإلا فلا إثم ولا حرج عليه .

---

(١) البقرة : ٢٠٣ .

فائـــــدة:

مايفسد الحج ولا يجبر تركه أو فعله بدم :

ونؤكد أن هناك ما لا يجبر تركه أو فعله بدم ولا بغيره في الحج ، بحيث لو ترك الحاج منه مايجب فعله ، أو فعل منه مايجب تركه لفسد حجه ، ومن ذلك :

١- فوات الوقوف بعرفة في وقته المشروع إجماعًا ؛ لقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الحج عرفة) (١).

٢- ترك طواف الركن " الإفاضة" ، فالإجماع أن من ترك طواف الركن لم يتم حجه ، مع تفصيل بين المذاهب فيما يجب عليه فعله إذا تركه .

٣- ترك السعي بين الصفا والمروة عند المالكية والشافعية والحنابلة ، خلافا للإمام أبي حنيفة الذي يرى أن السعي من الواجبات التي تجبر بالدم ، وهو ما يمكن الأخذ به

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب أبواب الحج ، بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ أَدْرَكَ الإِمَامَ بِجَمْعٍ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ ، حديث رقم ٨٨٩.

للمضطر ، كمن فاجأه مرض أو ألم به عارض بعد أدائه طواف الركن يحول بينه وبين السعي .

٤- الجماع قبل الوقوف بعرفة ، فإنه يفسد الحج إجماعا ، أما الجماع بعد الوقوف بعرفة وقبل التحلل الأصغر فإنه يفسد الحج عند الجمهور : (المالكية – الشافعية – الحنابلة) ، ولا يفسده عند الحنفية وعليه بدنة .

* * *

ماذا قبل الحج ؟

الحج رحلة إيمانية عظيمة ، تتوق إليها نفوس المؤمنين الموحدين ، والعلماء العاملين ، والمحبين الذاكرين ، وسائر المسلمين ، فهو أُمنية كل مسلم ، ومتاب كل عاص ، وملاذ كل مستغيث ، فيه منافع للناس ، وكلٌ ومقصده ، على حدِّ قول الشاعر[1] :

فلـمّـا قضَينـــا مِن مِنى كلَّ حـاجـةٍ
ومسَّـحَ بالأركانِ مَـن هـوَ مـاســـحُ
وشُـدَّتْ على حُـدْب المهارى رحالنا

---

(١) نسبت هذه الأبيات إلى كثير عزة ، كما فعل أبو الفتح العباسي (المتوفى، ٩٦٣هـ) في كتاب معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ص١٣٤ ، وهو الأشهر ، ونسبت أيضًا إلى ابن الطثرية ، كما فعل القاضي الجرجاني في الوساطة ص٣٤- ٣٥ ، ونسبت إلى المُضرب عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سلمى ، كما فعل الشريف المرتضى علي بن الحسين في أماليه (غرر الفوائد ودرر القلائد) ص٤٥٧- ٤٥٨ .

ولم ينظـر الغـادي الـذي هو رائـح
أخـذنـا بأطـرافِ الأحـاديث بيننـــا
وسـالتْ بأعنــاقِ المَـطِيِّ الأبـاطـحُ

هنالك تُسكب العبرات ، وتُغفر الزلات ، ولا ملاذ ولا ملجأ إلا إلى رب الأرض والسماوات ، من ذاق عرف ، ومن نهل اغترف ، ومن وصل فاز ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "من خرج يؤم هذا البيت حاجًّا أو معتمرًا كان مضمونًا على الله (عز وجل) إن قبضه أن يدخله الجنة ، وإن ردَّه ردَّه بأجر وغنيمة "[1]. ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ تَعَالَى ، يُعْطِيهِمْ مَا سَأَلُوا ، وَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ فِيمَا دَعَوْا ، وَيُخْلِـفُ لَهُـمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَيُضَاعِفُ لَهُمُ الـدِّرْهَـمَ أَلْفَ أَلْفَ دِرْهَم"[2].

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني ، ج ٩/ ص ٢٨ ، حديث رقم ٩٠٣٣ .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ، باب المناسك ، فضل الحج والعمرة ، ج٣/ ص ٤٧٦ ، حديث رقم ٤١٠٥ .

هنا فقط يُقبَّل الحجر ، ويُتمسَّح بالأركان ، ويكون السعي والطواف ، ويُساق الهدي ، وإلى هناك تُشَدُّ الرحال ، ويعظم القصد ، على حد قول الشاعر [1] :

إليـك وإلا لا تشـد الرحـال

وعنـك وإلا فالمحـدث كاذب

هنالك تعظم الذكريات ، حيث المسعى والمطاف ، وهاجر وزمزمها ، وإسماعيل وحجره ، والخليل ومقامه ، والحبيب وروضته ، وبيته وقبره ، والصدِّيق صاحبه ، والبقيع وأهله وعترته ، والمدينة وأنصارها ، ومكة وجوارها ، والحرم وحمائمه ، ومعالم عديدة لها في القلب موضعها ، وفي التاريخ مكانها ، من عرفة إلى منى فمزدلفة ، فقباء والقبلتين،

---

(١) هذا البيت للشيخ / عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدَميريّ الدِّيريني ، ولد سنة ٦١٢هـ ، وتوفي سنة ٦٩٤. انظر : طبقات الشافعية لتقي الدين السبكي المتوفى ٧٧١هـ ، ج ٨/ ص ١٩١ ـ ٢٠٨، ط، هجر للطباعة والنشر .

وبدر وأحد ، والغارين: ثور وحراء ، وطريق الهجرة ، ومساجد ومآثر ، لها في قلوب الخلق كل الخلق ثم مكانة ومنازل.

فإذا كان الأمر كذلك ، والحال على ما ذكر ، فينبغي التخلية قبل التحلية ، فيبدأ الحاج بتصحيح النية ، وسداد الدَّينِ ، ورد المظالم ، وتطهير النفس والمال ، وصلة ما كان من الرحم مقطوعًا ، وصلح من كان له مخاصمًا ، والاعتذار إلى من كان في حقه مخطئًا ، ثم ليفرغ إلى طاعته وعبادته ، وينأى بها عن كل ما يفسدها أو ينال منها ، أو يعكر صفوها عليه أو على غيره من الحجيج ، فيعتزم اعتزال اللغو والرفث والفسوق والجدال والعصيان ، وإن كان يريد تمام المغفرة والقبول فليضع نصب عينيه قول الحبيب (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ حَجّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوم وَلدَتْهُ أُمُّهُ"[1].

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب فَضْلِ الْحَجِّ الْمَبْرُورِ ، حديث رقم ١٥٢١.

ولعل أهم ما ينبغي أن يفعله الحاج قبل سفره يتمثل في أمرين:

الأول : **التوبة النصوح** ، التي تعني المراجعة الشاملة للنفس ، ولما كان منهـا في حق الله (عز وجل) وفي حق الناس ، فما كان من خير حمد الإنسان عليه ربه ، وما كان غير ذلك تاب العبد منه توبة نصوحًا ، بكل ما تعنيه الكلمة من صدق العزيمة ورد المظالم إلى أهلها ، فإن هذه التوبة وحدها حتى ولو لم تكن مصحوبة بحج ولا غيره يُبدل الله (عز وجل) بها سيئات عبده حسنات ، حيث يقول الحق سبحانه: " إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا "[1].

الأمر الآخر: **أن يتحرى النفقة الحلال** ؛ لأن الله (عز وجل) طيب لا يقبل إلا طيبًا ، فقد ذَكَرَ (صلى الله عليه وسلم) الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ

---

(١) الفرقان: ٧٠ ، ٧١ .

يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟" [1]، وقَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) :" إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ حَاجًّا بنفَقَةٍ طَيِّبَةٍ ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ ، فَنَادَى: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، زَادُكَ حَلالٌ ، وَرَاحِلَتُكَ حَلالٌ ، وَحَجُّكَ مَبْرُورٌ غَيْرُ مَأْزُورٍ ، وَإِذَا خَرَجَ بِالنَّفَقَةِ الْخَبِيثَةِ ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ ، فَنَادَى : لَبَّيْكَ ، نَادَاهُ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : لا لَبَّيْكَ وَلا سَعْدَيْكَ، زَادُكَ حَرَامٌ وَنَفَقَتُكَ حَرَامٌ، وَحَجُّكَ غَيْرُ مَبْرُورٍ"[2].

وقال (صلى الله عليه وسلم) : "يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ إِنَّهُ لاَ يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلاَّ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ"[3] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ في مَالِ اللهِ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة ، باب قَبُولِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْكَسْبِ الطَّيِّبِ وَتَرْبِيَتِهَا ، حديث رقم ٢٣٩٣.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ، ج ٢٠/ ص ٤٠ ، حديث رقم ١٢٩٩ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الصلاة ، باب مَا ذُكِرَ فِي فَضْلِ الصَّلاَةِ ، حديث رقم ٦١٧ .

بِغَيرِ حَقٍّ ، فَلَهُمُ النَّارُ يَومَ القِيَامَةِ" [1].

ثم إن على الحاج أن يحاول الإلمام بالمناسك وأحكام الحج وآدابه قبل سفره ، ليحرص عليها ، ويتحلى بها ، ويؤدي حجه على الوجه الأكمل الذي يرجى معه تمام القبول والغفران .

وإذا كان الكف عن أذى الناس مطلوبًا في كل وقت وحين وزمان ومكان فإن هذا الأمر يكون أشد تأكيدًا ، والأذى يكون أشد حرمة إذا ما حدث في حرم الله (عز وجل) أو في جواره ، حيث يقول سبحانه : {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[2]، فليحرص الحاج على الإيثار والإكرام ، والصبر والاحتمال ، والبعد عن كل ألوان الأذى ولو بالكلمة أو النظرة الغاضبة .

* * *

---

(1) صحيح البخاري ، كتاب فرض الخمس ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ}[الأنفال: ٤١] ، حديث رقم ٣١١٨ .

(2) الحج: ٢٥.

مواسم الخيرات والبركات

التفاضل بين الخلق سنة من سنن الحق سبحانه وتعالى، فقد فضل الله (عز وجل) بعض النبيين على بعض ، حيث يقول سبحانه : " تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ"[1] ، ويقول سبحانه : "وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا "[2].

وفضل بعض الشهور على بعض ، حيث يقول سبحانه : "إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ"[3] .

والأشهر الحرم هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب .

---

(١) البقرة : ٢٥٣.

(٢) الإسراء : ٥٥ .

(٣) التوبة : ٣٦ .

وفضل سبحانه بعض الليالي على بعض فقال (عز وجل) : "إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ " [1] ، وقال سبحانه : " إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ"[2] .

كما فضّل بعض الأيام على بعض ، ومن الأيام التي فضَّلها سبحانه على سائر الأيام : العشر الأول من ذي الحجة ، حيث يقول (عز وجل) :" وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ "[3] .

قال ابن كثير (رحمه الله) : المراد بها عشر ذي الحجة [4].

ويقول سبحانه: {وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ}[5] ، يقول ابن عباس: أيام العشر .

---

(١) القدر: ١ – ٣ .

(٢) الدخان: ٣ .

(٣) الفجر: ١ ، ٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ، تفسير سورة الفجر ، ج ٤ ، ص ٣٣٤ ، ط، مكتبة الإيمان .

(٥) الحج: ٢٨ .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ"، قَالُوا : وَلاَ الْجِهَادُ ؟ قَالَ : "وَلاَ الْجِهَادُ ، إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بشيء" [1] ، وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ وَلاَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَشْرِ ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ" [2].

وسئل سفيان بن عيينة (رضي الله عنه) يومًا ، ما كان أكثر دعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) بعرفة ؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر . فقيل له : هذا ثناء وليس بدعاء ، فقال: أما علمت أن الله (عز وجل) يقول : "إذا شغل عبدي ثناؤه عن مسألتي أعطيته أفضل ما

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العيدين ، باب فَضْلِ الْعَمَلِ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، حديث رقم ٩٦٩ .

(٢) مسند أحمد ، ج١٢/ ص ١٠٣ ، حديث رقم ٥٥٧٥ .

أعطي السائلين" [1].

وفيها يوم النحر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "إِنَّ أَعْظَمَ الأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمُ النَّحْرِ ثُمَّ يَوْمُ الْقَرِّ " [2].

وذلك للحاج وغيره ، حيث ذبح الهدي والأضاحي ، يقول الحق سبحانه : "وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[3] ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ (عز

---

(١) الاستذكار ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، ج ٤ / ص ٤٠٢ ، ط ، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٢١ – ٢٠٠٠ تحقيق : سالم محمد عطا ، ومحمد علي معوض .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب المناسك ، باب في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ ، حديث رقم ١٧٦٥، والمراد بيوم القر هنا : اليوم الذي يلي يوم النحر .

(٣) الحج : ٣٦ .

وجل) مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ إِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَظْلاَفِهَا ، وَإِنّ الدّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا"[1] .

وعن عائشة (رضي الله عنها) : أَنّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فَقَالَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) : " مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ " قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها . قَالَ : " بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا " [2] .

وفي هذه الأيام المباركات يستحب الإكثار من الصلاة والقيام والذكر والدعاء وقراءة القرآن الكريم وسائر أنواع البر والطاعات . وأبر البر في هذه الأيام صلة الرحم ، حيث يقول الحق سبحانه: "وَاتّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[3] ، ويقول (عز وجل) في الحديث

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب الأضحية ، باب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الأُضْحِيَةِ ، حديث رقم ١٥٧٢.

(٢) سنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الْحَوْضِ ، باب منه (١٤) ، حديث رقم ٢٦٥٨.

(٣) النساء: ١.

القدسي: " أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرّحِم ، وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بَتَتُّه "[1].

كما يستحب في هذه الأيام المباركة الإكثار من الصدقة على الفقراء ، والحرص على سنة الأضحية توسعة عليهم ، حيث يحثنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) على ألا نحوج أحدًا من الفقراء والمساكين إلى السؤال في أيام العيد ، فيقول (صلى الله عليه وسلم) : " أَغْنُوهُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ "[2] .

كما خص الحق سبحانه وتعالى يوم عرفة الذي هو من هذه العشر بمزيد من التفضيل ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ

(١) سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب مَا جَاءَ فِي قَطِيعَةِ الرَّحِمِ ، حديث رقم ٢٠٣١.

(٢) سنن الدار قطني ، كتاب الزكاة ، زكاة الفطر ، حديث رقم ٢١٥٧.

فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلاَءِ "[1] ، وفي قول الحق سبحانه: "وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ"[2] ، يقول أبو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) : إن نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال :" الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَالْيَوْمُ الْمَشْهُودُ يَوْمُ عَرَفَةَ ، وَالشَّاهِدُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ .. "[3] .

ولما نزل قول الله (عز وجل) " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِينًا "[4] ، جاء رجل من اليهود إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقال: يا أمير المؤمنين ، إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب فِى فَضْلِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَيَوْمِ عَرَفَةَ، حديث رقم ٣٣٥٤ .

(٢) البروج: ٣ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب التفسير ، باب وَمِنْ سُورَةِ الْبُرُوجِ ، حديث رقم ٣٦٦١ .

(٤) المائدة: ٣ .

معشر اليهود نزلت لاتخذنا يوم نزولها عيدًا ، قال: وأي آية ؟ قال : قوله : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي" ، فقال سيدنا عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عشية عرفة في يوم جمعة [1].

وفي فضل صيام يوم عرفة لغير الحاج والدعاء فيه يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ " [2] .

---

(1) متفق عليه، صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ ، حديث رقم ٤٥ . وصحيح مسلم ، كتاب التفسير ، سورة المائدة، حديث رقم ٧٧١٢ .

(2) صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ، حديث رقم ٢٨٠٣ .

ويقول (صلى الله عليه وسلم): خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَهَ إِلاَ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [١] .

فهذه أيام فضل وبر وبركة ، فالعاقل من اغتنمها وتعرض لنفحات الله فيها .

* * *

(١) سنن الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب فِى دُعَاءِ يَوْمِ عَرَفَةَ ، حديث رقم ٣٩٣٤ .

الصبر على مشاق الحج

" حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات"[1]، والحج عبادة بدنية ومالية يضحي فيها الإنسان بجهده وماله، وربما كانت التضحية بالمال هي الأيسر عند بعض الناس ، في حين أن التضحية بالجهد هي الأيسر عند آخرين ، غير أن هذا الفارق إنما يكون قبل الشروع في النسك ، أما عند الشروع في النسك فشيء آخر ، ليس فيه غني وفقير ، وقوي وضعيف ، إنما هي عزيمة وإرادة وتصميم وفقه وفهم ووعي ، فسلعة الله غالية ، وسلعة الله هي الجنة ، والحق سبحانه وتعالى يقول: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنّةَ وَلَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصّابِرِينَ" [2]، ويقول سبحانه

---

(١) حديث (حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب منه ، حديث رقم ٧٣٠٨ .

(٢) آل عمران : ١٤٢.

وتعالى: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ "(١) ، ويقول سبحانه:" أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ "(٢) ، والأجر على قدر المشقة ، وأحب الأمور إلى الله (عز وجل) أحمزها أي : أمتنها وأقواها (٣) .

وإذا كان الإنسان الراجي رحمة الله (عز وجل) يأمل فضله في تكفير السيئات وغفران الذنوب ، وأن يعود من حجه كما ولدته أمه ، فعليه ألا يجهل ، ولا يصخب ، ولا

---

(١) البقرة: ٢١٤ .

(٢) العنكبوت: ١ – ٣.

(٣) غريب الحديث لابن سلام ٤/ ٢٣٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت الطبعة الأولى ، ١٣٩٦.

يرفث ، ولا يفسق ، ولا يضجر من الطاعة ، ولا يؤذي حاجًّا ولا ينفر صيدًا ، وأن يكون سلمًا للإنسان والحيوان والطير والحجر والشجر ، فالحج مدرسة أخلاقية وتربوية ، ومن دروسه التربوية درس بناء العزيمة والقدرة على التحمل ، ألم يصف أهل العلم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقولهم: كانوا رهبانًا بالليل فرسانًا بالنهار ؟ وألم يقل الحق سبحانه وتعالى لنبينا (صلى الله عليه وسلم) : " يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً *إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً "(1)؟، فقيام الليل هو دربة على الصبر وتحمل المشاق ، والحج أيضًا دربة على بناء العزيمة القوية الصلبة الفولاذية .

على أن كل هذه المشاق لا تقارن بحال من يضحون بأنفسهم رخيصة في سبيل الله (عز وجل) استجابة لقوله

---

(1) المزمل: ١ – ٥ .

تعالى: " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[1]، ولله درُّ عبد الله بن المبارك حيث يقول في حال أهل الثغور[2] :

يا عابدَ الحرمينِ لوْ أبصرتنَا
لَعَلِمتَ أنَّك فَي العِبَادَةِ تَلْعَبُ
من كان يخضِبُ خدّه بدموعِه
فنُحــــورُنا بـدمائِنا تَتَخَضَّــبُ

فتحية لدماء الشهداء ، وتحية لكل الأبطال الذين يحمون ثغـور بلادهم ، ويبـذلون أنفسهم رخيصة في سبيـل

(١) التوبة: ١١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ج٨/ ص ٤١٢ ، رقم ١١٢ ، ط، مؤسسة الرسالة ، الطبعة، الثالثة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.

الدفاع عن دينهم وأوطانهم ، ولله درُّ القائل[1]:

يومَ الشَهـيد تحيـةٌ وسـلامُ

بك والنضالِ تؤرَّخُ الأعوام

فليحتسب كل حاج جهده وصبره عند ربه ، ولا يضيع الجائزة الكبرى بالشكوى والضيق والضجر أو النفور من العبادة ، فالحج اختبار ليس لقوة الأبدان وإنما لقوة الإيمان.

فمن قوي إيمانه بالله تعالى هانت في سبيله الدنيا وما فيها ، وتحول تعبه ومشقته إلى رضا حيث تذوب متاعب الجسد في أشواق الروح ، فتتحول كل عوامل المشقة إلى إضاءات صفاء روحي ونفسي ، لا تقوي عزيمة صاحبها خلال رحلة الحج المباركة وأداء مناسكه فحسب ، بل ربما ترسم طريقًا جديدًا لحياته الإيمانية كلها .

---

(١) من قصيدة بعنوان (يوم الشهيد) ، من ديوان الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري ، ص ٨٩ .

ومع ذلك فإن التيسير في الحج أصل وليس فرعًا ، وما يسَّر نبينا (صلى الله عليه وسلم) على أمته في شيء مثلما يسَّر عليها في أمر الحج ، مع تأكيدنا أن أي متاعب أو مشاق في الحج تكون لحظية آنية سرعان ما تتحول إلى طاقات إيجابية وشحنات إيمانية بمجرد انقضاء المشقة الطارئة ، ويبقى أجر المحتسبين عند الله (عز وجل) لا يزول.

* * *

□

التيسير في الحج

الإسلام كله قائم على التيسير ورفع الحرج ، مبني عليهما، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: " يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ "[1] ، ويقول سبحانه : " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ"[2]، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ "[3] .

ويقول سفيان الثوري (رحمه الله) : إنّما العلم عندنا الرخصة من ثقة ، فأما التشديد فيُحسنه كل أحد[4] .

---

(١) البقرة: ١٨٥ .

(٢) الحج: ٧٨ .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدِّينُ يُسْرٌ ، حديث رقم ٣٩ .

(٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٧٨٤ ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية ، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

والفقه عند أهل العلم هو التيسير بدليل ، ولم يقل أحد من أهل العلم إن الفقه هو التشدد ، حيث يقول الحق سبحانه على لسان نبينا (صلى الله عليه وسلم): " قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ "[1] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "عَلَيْك بِالرِّفْقِ ، فَإِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَ زَانَهُ ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ شَانَهُ"[2].

كما ثبت أن نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ [3].

---

(١) الفرقان: ٥٧ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب فَضْلِ الرِّفْقِ ، حديث رقم ٦٧٦٧ .

(٣) متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب صِفَةِ النَّبِي (صلى الله عليه وسلم) ، حديث رقم ٣٥٦٠ . وصحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب مُبَاعَدَتِهِ (صلى الله عليه وسلم) لِلآثَامِ وَاخْتِيَارِهِ مِنَ الْمُبَاحِ أَسْهَلَهُ وَانْتِقَامِهِ لِلَّهِ عِنْدَ انْتِهَاكِ حُرُمَاتِهِ ، حديث رقم ٦١٩٠ .

وإذا كان الإسلام كله قائمًا على التيسير ورفع الحرج فإن هذا التيسير في الحج أولى وألزم ، فما يسَّر نبينا (صلى الله عليه وسلم) في شيء أكثر من تيسيره على حجاج بيت الله (عز وجل) في قولته المشهورة : " افعل ولا حرج"[1] ، وإذا كان هذا التيسير مع ما كان عليه عدد الحجيج آنذاك فما بالكم بموجبات التيسير في زماننا هذا ؟ .

غير أن التيسير الذي نسعى إليه هو التيسير المنضبط بضوابط الشرع ، المقرون بمدى القدرة والاستطاعة ، إذ ينبغي أن يحرص المستطيع على أداء العبادة على وجهها الأكمل والأفضل الذي يحقق لصاحبه أعلى درجات الفضل والثواب ، وبما لا يصل إلى حد التهاون الذي يُفرّغ العبادة من مضامينها التعبدية الأصيلة السامية ، وبحيث لا تنحصر

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب الفتيا وهو واقف على الدابة وغيرها ، حديث رقم ٨٣ ، صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب من حلق قبل النحر ، أو نحر قبل الرمي ، حديث رقم ١٣٠٦.

همة الإنسان في تتبع كل الرخص في كل الأركان والواجبات وعلى كل المذاهب ، إنما يأخذ من الرخص ما يقتضيه واجب الوقت وظروف أداء الشعيرة وموجبات التيسير.

وعندما يتحدث العلماء عن مسائل التيسير في الحج فإنما يعرضونها ليأخذ المحتاج منها بالقدر الذي يُذهب عنه المشقة غير المحتملة ، ويخفف عن أصحاب الأعذار المشقة التي لا تُحتمل في ضوء ما يجيزه الشرع الحنيف من أوجه التيسير ، وليحرص العلماء والمفتون على التيسير على الناس، وليأخذ الناس أنفسهم بالرفق واليسر واللين ، ولكن دون إفراط أو تفريط .

ولا ينبغي أن يدعي أحد – في القضايا الخلافية في الحج أو في غيره – أن رأيه هو الحق والصواب وما سواه أو عداه هو الخطأ ، بل هو اجتهاد بغية الوصول للحق مع مراعاة مقاصد الشرع الحنيف في التيسير ورفع الحرج ، من

غير إنكار على المختلف في الرأي فيما يقبل الخلاف ، فالقاعدة أن المختلف فيه لا ينكر على فاعله ، إنما ينكر على من يفعل المجمع على تركه أو يترك المجمع على وجوبه ، والحج يقتضي البعد عن اللغو والجدل ، فللعالم رأيه واجتهاده ، وللآخرين من أهل الاجتهاد والنظر المعتبر آراؤهم التي تقدر وتحترم ، في ضوء ما قرره أهل العلم : "نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا ويحترم رأيه واجتهاده فيما اختلفنا فيه"(١) ، ولله درُّ الشافعي (رحمه الله) ، حيث يقول: رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب(٢).

---

(١) رسائل السنة والشيعة لمحمد رشيد بن علي رضا (المتوفى١٣٥٤هـ، ط ، دار المنار ، القاهرة . الطبعة الثانية ، ١٣٦٦هـ – ١٩٤٧م.

(٢) وثبت عن الشافعي قوله : " إذا خالف قولي قول الرسول فاضربوا بقولي عرض الحائط وخذوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم".البداية والنهاية لابن كثير ج١٠/ ص ٢٧٦ ط. دار الحديث.

ويمكن أن نقول : إن كلا الرأيين قد يكونان على صواب غير أن أحدهما قد يكون راجحًا والآخر مرجوحًا ، فالآراء الراجحة ليست معصومة ، والآراء المرجوحة ليست مهدومة طالما أن لصاحبها حظًّا من الاجتهاد والنظر والدليل الشرعي المعتبر .

ونماذج التيسير في الحج أوسع من أن تحصى ، فمنها : إعانة الضعفاء في الرمي تخفيفًا عليهم ، ومنها: التوسع في وقت الرمي ، ومدة البقاء بمزدلفة ، والتوسع في ترتيب أعمال يوم النحر ، والجمع بين طوافي الإفاضة والوداع للضعفاء وغير القادرين على القيام بكل منهما منفردًا.

* * *

هل تعلمت معنى التضحية والفداء من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام؟

يقول الحق سبحانه وتعالى: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"(١) ، ويقول سبحانه : "وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى"(٢) ، فبعد أن شبَّ ولده إسماعيل (عليه السلام) عن الطوق ، وبلغ معه السعي يأتيه الأمر بذبح هذا الغلام الحليم العليم ، فيستجيب إبراهيم وولده لأمر ربِّهما طائعَين للأمر في أعلى أنموذج تضحية عرفته البشرية في تاريخها ، حتى أصابهما اللطف الإلهي والعناية الإلهية ، فكان الفداء العظيم ، وفي كل مرة كان الشيطان يتعرض له في طريقه ، فكان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) له بالمرصاد ، رجماً في الأولى عند العقبة الصغرى ، ورجماً في الثانية عند العقبة

---

(١) النحل: ١٢٠،١٢١.

(٢) النجم: ٣٧.

الوسطى ، ورجما في الثالثة عند العقبة الكبرى ، فلم يكن للشيطان على إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام) سبيل ولا سلطان ، حيث يقول الحق سبحانه: " إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }[1] ، فهل تعلمنا معنى التضحية من أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ، بأن تضع نفسَك ومالَك وولدَك في كفة ودينَ الله في كفة ثم تُرَجِّحَ كفةَ دينِ الله ، وأنت على يقين بأنك في الكفة الراجحة ، بلا تردد ولا مساومة ، فالآخرة نِصبَ عينيك ، ومرضاة الله بغيتُك وأملُك ومبتداك ومنتهاك ؟ .

هل علمت أو جربت معنى أن تكون عبدًا ربانيًّا ، حركاتك وسكناتك لله (عز وجل) ، وأدركت أن من ذاق عرف ، ومن عرف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، فأعددت للآخرة عدتها ، ولَم تنس نصيبَك من الدنيا ، فعمَرت الدنيا بالدِّين ، ولَم تخرِّبها باسم الدين ؛ لأن الأديان رحمة

---

(١) النحل: ٩٩.

للعالمين ، للبلاد والعباد ، والحيوان والجماد ، والحجر والشجر ، وهذا هو دين رب العالمين ، ومنهج سيد الخلق أجمعين ، عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم ، من سار على هديه مُسَلِّمًا تسليمَ أبي الأنبياء إبراهيمَ (عليه السلام) ، لم يكن للشيطان عليه سلطان ولا إليه سبيل ، ويكون قادرًا على قهر شيطانه كما فعل الخليل إبراهيم (عليه السلام) ، وتلك إحدى حكم رمي الجمرات وأسرارها .

* * *

من وحي الرحلة

لا شك في أن أعظم رحلة في الكون يمر بها المسلم في حياته إنما هي رحلة الحج ، ففيها من الفضائل والمنافع ما ذكره الله (عز وجل) في قوله تعالى: "وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ "[1].

وفي جوار بيت الله الحرام ، واستحضارًا للوقوف أمام روضة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أخذْتُ أتأمل ما صار إليه حال هذه الكثرة الكاثرة التي أرْبَتْ على مليار ونصف المليار مسلم ، واستحضرت صورة المسلمين في العالم ، فوقفت أناجي ربي ، وأخاطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قائلا:

---

(١) الحج: ٢٧ ، ٢٨ .

قم يا رسول الله قم فارع الزماما   قم يا رسول الله صرنا كاليتامى
قم يا رسول الله حُرّف ديننا   دين السماحة والمروءة والنشامى
قم يا رسول الله جئنا تضرعًا   لله رب البيت أن يرعى الزماما

* * *

جئنا رسول الله نشكو حالنا   حال التشدد والتسيب والجهالهْ
حال المصالح والمطامع والتفـ   ـرق والتشتت والتطرف والخيانهْ
قم يا رسول الله أدرك أمة   يسعى لهدم بنائها أهل الضلالهْ

* * *

جئنا وهذا العام غير الذي مضى   مخاطرُ أخرى للعدا لا تنفدِ
لكن خير الجند في مصر التي   شرفت بتزكية الحبيب محمدِ
قد وطنوا عند الشدائد أنفسا   وقفاتها عند النوائب تحمدِ

* * *

يا أمة المختار هي هبة   تجلو الصدى وتصحح الأوضاعا
أوضاع من باعوا ببخس دينهم   طلبوا به الأموال والإمتاعا
يجرون خلف الشرق والغرب لُهَّثًا   خدموا الأعادي والحيا قد ضاعا

* * *

كنا على الأيام أهــلَ حضــارةٍ   تهدي إلى الأخلاق والإحسان

ماذا أصاب القوم بعدك أحمد   من سوء أخلاق ومــن نكران

نحتـاج هبــة ثــورة فكريـة   لنقَــوِّم المعــوج في البنيـان

* * *

تبًّا لأيـدي العابثيــن بديننــا   ممـن أرادوا الشر في أوطاننـا

تبًّا لهم خرقوا السفين بجهلهـم   فلنصلحــنْ ما أفسـدوا بدمائنـا

إن السماحة أصلهـا فـي ديننـا   والعـدل والإحسان في قرآننـا

* * *

أقسمت بالبيت الذي طفت حوله   وطاف رجال أهل صدق وحكمة

لا نُسلِم الإسلام فـي أوطاننا   أبـدًا لأهل تشـدد وتعنــت

سنقاوم الفهم السقيم بحكمة   ودرايـة وروايــة وبفطنــة

* * *

وإنني لأدعو كلَّ مسلم غيور على دينه أن يراجع نفسه ، وأن يصحح نيته ، وأن يقدِّم مصلحة الإسلام على أي مصالح أخرى تضر بصورة هذا الدين أو تشوهه ، وأؤكد أن على

كل حاج خَلَعَ ملابسه الدنيوية وتجرد لله (عز وجل) أن يؤْثِر مصلحة دين الله على كل المصالح والمطامع الحزبية أو المذهبية أو الشخصية .

*   *   *

□

نحو روح إيمانية وثابة

لا شيء أكثر طمأنينةً للنفس ، وتزكيةً لها ، وارتقاءً بها ، من لجوئها إلى الله (عز وجل) ، واعتصامها به ، واحتمائها بركنه الشديد .

ولا شيء أكثر ضبطًا لسلوكها من حسن مراقبتها له ، وخوفها منه ، وقد قالوا : من الصعب ، بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن تخصص لكل إنسان شرطيًّا يحرسه، أو مراقبًا يلازمه ويراقبه ، وحتى لو فعلنا ذلك فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه ، ولكن من السهل أن نربي في كل إنسانٍ ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ، ويدفع إليه ، راقبناه أم لم نراقبه ، لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم .

وهذا سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) يختبر أمانة أحد الرعاة ، فيقول له : بعني شاةً ، فيقول الراعي: لَيْسَ هَا هُنَا رَبُّهَا ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : تَقُولُ : أَكَلَهَا الذِّئْبُ ، فَرَفَعَ الرَّاعِي رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ قَالَ: فَأَيْنَ اللَّهُ؟

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَأَنَا وَاللَّهِ أَحَقُّ أَنْ أَقُولَ: فَأَيْنَ اللَّهُ؟ فَاشْتَرَى ابْنُ عُمَرَ الرَّاعِي وَاشْتَرَى الْغَنَمَ ، فَأَعْتَقَهُ وَأَعْطَاهُ الْغَنَمَ؟[1].

وفي قصة ابنة بائعة اللبن التي طلبت منها والدتها أن تخلط اللبن بالماء ، فقالت لها: يا أماه! ألم تعلمي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد نهى عن خلط اللبن بالماء؟ فقالت لها : وأين عمر الآن ؟ فقالت : إذا كان عمر قد نام أو غاب فكيف بالذي لا يغفل ولا ينام ؟ ، وكان الخليفة عمر (رضي الله عنه) ساعتها على الباب يتفقد أحوال رعيته ، فرأى أنه لا أحد أكفأ لابن أمير المؤمنين من هذه الفتاة الأمينة التي تراقب الله في سرها قبل علنها ، مهما كانت منزلتها الاجتماعية ، حتى لو كانت مجرد بائعة لبن ، لقوله تعالى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"[2] ، فذهب عمر (رضي الله عنه) إلى ابنه عاصم وعرض عليه الأمر ، وزوجه إياها ، وأنجبت لهما فتاة تزوجها عبد العزيز بن

---

(1) المعجم الكبير للطبراني ، ج ١٠/ ص ٤٠٦ ، حديث رقم ١٢٨٧٨.

(2) الحجرات: ١٣.

مروان ، فأنجبت له عمر بن عبد العزيز ، خامس الخلفاء الراشدين[1] ببركة هذه الأمانة وحسن المراقبة لله (عز وجل).

ولا شك أن العبادات كلها تهدف إلى تقوية هذه المراقبة وتصحيح السلوك الإنساني ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، يقول الحق سبحانه : "وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ"[2] ، وأهل العلم على أنه من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له .

والصوم سر بين العبد وخالقه ، ومن أهم معانيه تحقيق التقوى والمراقبة لله (عز وجل) ، فالصائم عندما يتوضأ لا يعلم أحدٌ إلا الله (عز وجل) بوصول الماء أو عدم وصوله إلى

---

(١) راجع : تاريخ دمشق لابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١هـ) ، ج ٧٠/ ص ٣٥٣ ، تحقيق : عمرو بن غرامة العمروي ، ط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٥م.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

فَمِهِ ، ولا يحجزه عن الطعام والشراب إلا مراقبته لله ، تلك المراقبة التي يريد الشارع الحكيم أن تكون أنموذجا لسائر أنواع المراقبة ، يقول الحق سبحانه : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"(١) .

أما شعيرة الحج فتقوم على التضحية بالمال والجهد والبدن ، مع حسن التوكل على الله (عز وجل) وإخلاص النية له ، إذ يبدأ الإنسان عند خروجه من منزله بدعاء السفر: اللهم إنك أنت الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل والولد ، فيلقي حموله وهمومه وأحواله كلها إلى أمر ربه (عز و جل) ، مدركا أن الأمر كله لله ، ولو صدقت نية الحاج فهو في معية الله وفي ولايته ، حيث يقول الحق سبحانه: "نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ"(٢)،

---

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) فصلت: ٣١.

ومن تولاه الله كفاه وأغناه وأراح نفسه وقلبه ، يقول سبحانه: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا"[1]، ويقول سبحانه: "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا"[2] ، ويقول سبحانه: "مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا"[3] ،ويقول سبحانه: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ"[4] .

ثم يتجرد الإنسان من الدنيا وعلائقها من مال وعتاد ، وولد وسلطان ، محرمًا بلباس متجردة هي أشبه ما يكون بتلك الأكفان التي يلقى بها ربه ، وعلى العاقل أن يستحضر أن هذا اليوم آتٍ لا محالةَ ، وكل طويل في حساب الزمن

---

(١) الطلاق: ٤.

(٢) الطلاق: ٥.

(٣) فاطر: ٢.

(٤) الزمر: ٣٦.

قصير، والسعيد من وُعِظ بغيره ، والشقي من وُعِظ بنفسه ، والعاقل من يبيع دنياه بآخرته ، والأحمق من يبيع آخرته بشيء من متاع الدنيا الزائل ، وفي هذا نذكر بقول القائل : يابن آدم أنت في حاجة إلى نصيبك من الدنيا لكنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن أنت بدأت بنصيبك من الدنيا ضيعت نصيبك من الآخرة ، وكنت في نصيبك من الدنيا على خطـر ، وإن أنت بدأت بنصيبك من الآخرة مرّ بنصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاما فأصلح الله لك أمر الدنيا والآخرة ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلاَ مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ"[1].

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الهم بالدنيا ، حديث ٤١٠٥.

وعندما يتعلق الإنسان بأستار الكعبة يدرك بلا شك أنه يأوي إلى ركن شديد ، ورب عظيم رحيم ، حيث الأمل في رحمة الله ورضوانه ، في كشف الكرب ، وجلاء الظُّلَم ، وفتح أبواب الرحمة في الدنيا والآخرة ، وذلك عند بيت الله المحرم ، حيث أمر الله (عز وجل) نبيه وخليله إبراهيم (عليه السلام) أن يؤذن في الناس بالحج فاستجاب ، بلا تفكير ولا تردد ، مع أن الأرض آنذاك كانت صحراء قاحلة لا إنس ولا أنيس ، لكن إبراهيم (عليه السلام) كان يدرك أن الخير في طاعة الله (عز وجل) ، وأن ما عليه هو تنفيذ الأمر الإلهي ، وأن الاستجابة أو عدم الاستجابة لندائه هي ليست من حوله ولا قوته ، إنما هي من مشيئة الله وإرادته : " إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"[1] ، أذِّنْ يا إبراهيم وعلى الله البلاغ ، فأذَّنَ إبراهيم وبَلَغَ نداؤه العالمين ، فأتوا من كل حدب وصوب

---

(1) القصص: ٥٦.

رجالاً وركبانًا ، شعثًا غبرًا ، من كل فج عميق يرجون رحمة ربهم ويخافون عقابه ، يحدوهم الأمل في القبول والغفران .

ثم يأتي السعي بعد الطواف ليدرك الإنسان ما كان من أم إسماعيل (عليه السلام) في أخذها بالأسباب ، وليت المسلمين جميعًا حُجَّاجًا وغير حجاج يستفيدون من هذه الدروس في الأخذ بالأسباب ، ويدركون أن الله (عز وجل) لا يضيع أجر من أحسن عملا وأتقن صنعًا .

ويأتي السعي بين الصفا والمروة في إطار رمزية كبرى هي السعي والعمل لنصرة دين الله (عز وجل) من جهة ، وإعمار الكون لصالح البلاد والعباد من جهة أخرى .

ويأتي تقديم الهدي ونحر الأضاحي لتخليص النفس من علائق الشح والبخل ، في رمزية كبرى للتضحية في سبيل الله ، وفي سبيل الوطن ، وفي قضاء حوائج الناس من إطعام الجائع وكساء العاري وإغاثة الملهوف ، وإسكان الشباب ، وبناء المجتمعات بتوفيرها ما تحتاجه من مقومات

لا بد منها في مجالات الصحة ، والتعليم ، والطاقة ، وغير ذلك في إطار التكافل المجتمعي وفروض الكفايات .

أما الرجم فإشارة إلى العداء المستحكم بين الشيطان وبني الإنسان ، ليدرك الإنسان في كل زمان ومكان أن الشيطان عدو مبين ، متربص بالإنسان ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وشماله إلا من رحم رب العالمين ، وحفظه من غواية الغاوين ، وهنا يحاول الشيطان أن يأتيك من أي طريق يستطيع به النفوذ إليك ، يقول الإمام الأوزاعي (رحمه الله) : ما أمر الله (عز وجل) في الإسلام بأمر إلا حاول الشيطان أن يأتيك من إحدى جهتين ، لا يبالي أيهما أصاب ، الإفراط أو التفريط ، الغلو أو التقصير(١) ، فالعاقل الحكيم من يفوت على الشيطان الرجيم كلتا

---

(١) المقاصد الحسنة ، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت ٩٠٢هـ ، ص ٣٣٢ ، تحقيق : محمد عثمان الخشت ، ط. دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.

الفرصتين ، فلا يميل أي الميل إلى اليمين أو اليسار ، إنما يقف وفق منهج الإسلام السمح في منطقة الوسطية والاعتدال ، يقولون : "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ طَرَفَيْنِ وَوَسَطًا فَإِذَا أَمْسَكْتَ بِأَحَدِ الطَّرَفَيْنِ مَالَ الْآخَرُ ، وَإِذَا أَمْسَكْتَ بِالْوَسَطِ اعْتَدَلَ الطَّرَفَانِ ، ثُمَّ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالْأَوْسَطِ مِنَ الْأَشْيَاءِ"[1] .

* * *

---

(١) مسند أبي يعلى ، أحمد بن علي بن المثُنى التميمي ، الموصلي ت٣٠٧ هـ ، ج١٠/ ص ٥٠١ ، تحقيق : حسين سليم أسد ، ط. دار المأمون للتراث ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

من أسرار المناسك

□

الحج ورحلة التشبه بالآخرة

الحج رحلة ذات طبيعة خاصة ، ربما تذكر الإنسان العاقل بحال الآخرة ، بداية من دعاء السفر وترك المال والأهل والولد ، في كنف الله ورعايته .

فعن ابنِ عمر (رَضِيَ اللَّه عنهما) أَنَّ رسولَ اللَّه (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم) كانَ إِذا اسْتَوَى عَلَى بعِيرهِ خَارجًا إِلي سفَرٍ ، كَبَّرَ ثلاثًا ، ثُمَّ قالَ: " سبْحانَ الذي سخَّرَ لَنَا هذا وما كنَّا له مُقرنينَ * وَإِنَّا إِلى ربِّنَا لمُنقَلِبُونَ" (1)، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ في سَفَرِنَا هذا البرَّ والتَّقوى ، ومِنَ العَمَلِ ما تَرْضى ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ علَيْنا سفَرَنَا هذا وَاطْوِ عنَّا بُعْدَهُ ، اللَّهُمَّ أَنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ ، وَالخَلِيفَةُ في الأهْلِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وعْثَاءِ السَّفَرِ ، وكآبةِ المنظَرِ ، وَسُوءِ المنْقلَبِ في المالِ والأهلِ وَالوَلدِ"، وإِذا رجَعَ قَالهُنَّ وزاد فيهنَّ:" آيبونَ تَائِبونَ

(1) الزخرف: ١٣ ، ١٤.

عَابِدُون لِرَبِّنَا حَامِدُونَ " [1].

ثم في لباس الإحرام والتجرد من علائق الدنيا ، حيث يقول الله تعالى : " وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ " [2].

ثم يأتي هذا الجمع في صعيد عرفات في مشهد وصورة ربما لفتت نظر الإنسان إلى يوم المثول بين يدي الواحد الأحد في يوم الحشر الأعظم ، " يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" [3]، حيث يقول الحق سبحانه : " يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ، حديث رقم ١٣٤٢ .

(٢) الأنعام: ٩٤.

(٣) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ"[1].

* * *

(١) غافر: ١٦ – ١٩.

مفهوم التلبية وتمامها

التلبية استجابة لنداء رب العالمين ، ودعوة أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ، واتباع لسنة خاتم الأنبياء والمرسلين سيد الخلق أجمعين سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، حيث يردد الحاج : لبيك اللهم لبيك ، أي : إجابة لك بعد إجابة ، وفوق إجابة ، وتسليم لك بعد تسليم ، وإثر تسليم ، فهي تسليم وخضوع وانقياد مطلق لوجه الكريم .

وتمام هذه التلبية أن تكون بالقلب والعقل ، واللسان وسائر الجوارح ، بحيث تمتلك من الإنسان نفسه وكيانه كله، فيصير عبدًا ربَّانيًّا : في حركاته وسكناته ، في خضوعه وانقياده ، بكل ما تعنيه تلك الكلمات من معان جامعة .

ومن تمام التلبية أيضًا ألا نقف بها عند مشاعر الحج ومناسكه ، إنما يكون ذلك بأن تتحول هذه التلبية إلى منهج حياة ، فيراك الله (عز وجل) حيث أمرك وحيث يحب أن يراك ، ولا يراك حيث نهاك وحيث لا يحب أن يراك ، وبهذا نحقق معنى التلبية.

رمي الجمرات بين المظهر والجوهر

لا شك أن رمي الجمرات نسك يرمز إلى رجم الشيطان ، وللناس في ذلك مسالك ، فمن وقف عند الشكل فقد أسقط أداء النسك عن نفسه أو من وكله عنه ، وعلم أنه يرمز بنسكه هذا إلى رجم الشيطان الرجيم ، أما من أراد الجوهر فإنه يتجاوز شكلية الرجم إلى دلالته الحقيقية ، وهي مواجهة الشيطان ومقاومته ، والعمل على التخلص من سلطانه وسطوته ، حيث يقول الحق سبحانه: " إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ" (1) ، فيعقد العزم على سد ثغرات الضعف النفسية لديه ، ليكون قويًّا في مواجهة وسوسة الشيطان وتحدياته ، حتى لو أجلب بخيله ورجله ، فلا يكذب ، ولا يغش ، ولا يغدر ، ولا يخون ، ولا ينم ، ولا

---

(1) النحل: ٩٨- ١٠٠.

يغتاب ، ولا يحتكر ، ولا يلغ في الدماء ولا الأموال ولا الأعراض ، لا يظلم ، ولا يجهل ، ولا يأكل الحرام ، ولا ينافق، ولا يؤذي أحدًا ، وعلى الجملة يستحي من الله (عز وجل) أن يراه حيث نهاه وألا يراه حيث أمره ، فيصير عبدًا ربَّانيًّا ، حركاته وسكناته وسائر جوانب حياته لله (عز وجل).

* * *

من فيض المشاعر

هناك في عرفات الله تسكب العبرات ، وتتنزل الرحمات ، وتستجاب الدعوات ، ويعفى عن السيئات ، وتضاعف الأجور والحسنات.

هنا موضع استجابة الدعوات وغفران السيئات ، اللهم لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، حمدًا يليق بجلالك وكمالك وإنعامك وإفضالك.

اللهم زد هذه الأماكن المباركة تشريفًا وتعظيمًا ومهابة ، ولا ترد أحدًا من القاصدين إلا بحج مبرور وذنب مغفور وعمل خالص متقبل مأجور .

اللهم اهدنا واهد بِنَا واجعلنا سببًا لمن اهتدى ، وارزقنا حسن الفهم لديننا ، وصدق العمل له ، والإخلاص لوجهك الكريم .

اللهم إنا نعوذ بك من الشقاق ، والنفاق ، وسوء الأخلاق ، ونسألك علمًا نافعًا ، وقلبًا خاشعًا ، ولسانًا ذاكرًا ، ونسألك

الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل .

وقد قلت في عرفات :

إلى عرفات الله يممت وجهتي

وأملت في الرحمن غفران زلتي

وتاقت نفوس العاشقين لمشعر

عليه آمال الخلق ترنو لرحمة

يفيض بها الرحمن عطفًا عليهم

إفاضة إكرام عظيم ومنة

فلله در الواقفين ودرنا

إذا مَنّ رب العرش ثَمّ بتوبة

لتمحو أثر الذنب من أعناقنا

وترقى بمشتاق لأبواب جنة

فيا رب فرج كربنا وهمومنا

وتمم زيارتنا بأعتاب روضة

بروضة أحمد خير خلقك كلهـم
وحقق مناي بالبقيــع وبغيتـــي

إن الحج رحلة إيمانية ، تهفو إليها نفوس المسلمين جميعًا، وهي أمل كل مسلم ، سواء في مقتبل العمر أم في ختام رحلة الحياة ، حيث يهب الناس رجالاً ونساء ، آحادًا وجماعات ، من كل فج عميق إلى بيت الله الحرام ، استجابة لقوله تعالي : " وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ " [1].

وتلك فرصة في العمر قد لا تتكرر ، فالعاقل من اغتنمها ، ولم يضيعها ، وعمل بكل طاقته على التعرض لنفحات الله فيها " أَلاَ إِنَّ لِرَبِّكُم فِي أَيَّامِ دَهْرِكُم لَنَفَحَاتٍ ، أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا"[2] .

---

(١) الحج: ٢٧.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ، ج٣ /ص ١٨٠ ، حديث رقم ٢٨٥٦.

ومن أهم مظاهر هذا التعرض : الخشوع والخضوع لله (عز وجل) ، وكثرة الذكر والثناء عليه .

وعلى الحاج أن يلح في طلب الرضا والقبول ، والدعاء بحسن الخاتمة وتيسير الوصول .

وعليه ألا يكف عن الدعاء لوطنه بالسلامة والأمن والاستقرار ، وللعصاة بالهداية والبعد عن مسالك ومصائد الشيطان ، وللقادة المصلحين بالسداد والتوفيق والوصول بالأوطان إلى بر الأمان .

* * *

□

شعيرة الأضحية ومقاصدها السامية

للأضحية مقاصد سامية ، فهي من جهة طهرة للمال وصاحبه ، ومن جهة أخرى إغناء للفقراء ، وتوسعة على الأهل والأصدقاء والجيران والأحباب .

وهي سنة مؤكدة عن سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقد ضحّى (صلى الله عليه وسلم) بِكَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ[1] ، ولما سئل عن الأضاحي قال: " سنّةُ أبِيْكُمْ إِبْرَاهِيْمَ (عَلَيْهِ السَّلامُ)"[2] .

ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ ، إِنَّهَا لَتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقُرُونِهَا ، وَأَشْعَارِهَا ، وَأَظْلاَفِهَا ، وَإِنَّ الدَّمَ لَيَقَعُ مِنَ اللَّهِ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأضاحي ، باب في أضحية النبي (صلى الله عليه وسلم) بكبشين أقرنين ويذكر سمينين، حديث رقم ٥٥٥٤.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الضحايا ، باب منه ، حديث ١٩٠١٧.

بِمَكَانٍ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ مِنَ الأَرْضِ ، فَطِيبُوا بِهَا نَفْسًا"[1] .

وأكثر الناس إنما يحفظون أو يفهمون أو يقفون عند قول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " كُلُوا وَأَطْعِمُوا وادَّخِرُوا"[2] ، وينظرون بما يشبه التقديس إلى أقوال بعض الفقهاء بتقسيم الأضحية إلى ثلاثة أقسام : ثلث للفقراء ، وثلث للإهداء ، وثلث للإنسان وأهله ، على أن هذا التقسيم هو عملية تقريبية للتصرف ، وكان القصد منه ألا يجور المضحي على نصيب الفقراء ، وأن يخصهم على أقل تقدير بالثلث في أضحيته ، فمن زاد زاده الله فضلاً.

ويغفل كثير من الناس عن أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) لما رأى بالناس فاقة قال لهم: " مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلاَ يُصْبِحَنَّ

---

(١) سنن الترمذي ، أبواب الأضاحي ، باب ما جاء في فضل الأضحية ، حديث ١٤٩٣.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأضاحي ، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها ، حديث ٥٥٦٩ .

بَعْدَ ثَالِثَةٍ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ " ، فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا العَامَ المَاضِي؟ قَالَ: "كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا ، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا" (١) .

فحيث يكون الرخاء والسعة يكون العمل بقوله (صلى الله عليه وسلم) : " كلوا وتصدقوا وادخروا "، وحيث يكون بالناس جهد وحاجة أو شدة وفاقة يكون العمل بقوله (صلى الله عليه وسلم) : "من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثالثة وفي بيته منه شيء".

على أن الأجر على قدر التوسعة على الفقراء والمحتاجين ، فعندما سأل نبينا (صلى الله عليه وسلم) السيدة عائشة (رضي الله عنها) حين ذبحوا شاة ، فقال لها : " مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ " ، قالت : مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُها ، قَالَ (صلى

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأضاحي ، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها ، حديث رقم ٥٥٦٩.

الله عليه وسلم) : " بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرُ كَتِفِهَا "[1]، فالذي يعطي ويتصدق به هو الذي يدخر للإنسان ويجده ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: "مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ"[2].

وقد حثنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) على التوسعة على الفقراء والمساكين في أيام العيد ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "أَغْنُوهُمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ "[3] ، أي أعطوهم ووسعوا عليهم ولا تُحوجوا أحدًا منهم إلى السؤال في هذا اليوم .

وينبغي أن يضع المعطي نفسه موضع الآخذ ، ويقدر ماذا كان يتمنى لو كان مكان الآخذ ليفعل معه ؟ ، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز : "وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

---

(1) سنن الترمذي ، أبواب صفة القيامة ، باب منه ، حديث رقم ٢٤٧٠.

(2) النحل: ٩٦.

(3) سنن الدار قطني ، كتاب زكاة الفطر ، باب منه ، حديث رقم ٢١٣٣.

غَنِيٌّ حَمِيدٌ"[1] ، وليتذكر الإنسان أن الأيام دول ، وأن غني اليوم قد يكون فقير الغد ، وفقير اليوم قد يكون غني الغد ، وأن الله (عز وجل) قادر على تبديل الأحوال ، حيث يقول سبحانه: " وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ"[2].

وليدرك أن النعم تدوم بالشكر وتزول بالجحود والنكران ، وكما تتحقق الأضحية بالذبح تتحقق بالصك ، فلا شك أنه يعظم من نفع الأضحية ، وبخاصة لمن لا يملك آلية لتوزيعها على الوجه الأمثل ، مما يجعلها تصل عبر منظومة الصكوك إلى مستحقيها الحقيقيين ، وهو ما يزيد من نفع الأضحية وثوابها في آن واحد ، كما أنه يحقق إيصال الخير إلى مستحقيه بعزة وكرامة وآلية لا تمتهن آدمية الإنسان أو تنال منها .

وما أجمل أن يجمع المستطيع الموسر بين ذبح الأضحية

---

(1) البقرة : ٢٦٧.

(2) آل عمران : ١٤٠.

توسعةً على أهله وذويه ، وشراء الصكوك توسعة على عامة الفقراء في المناطق الأكثر احتياجًا.

* * *

الحج وقضية التسليم

الإسلام يعني الاستسلام والخضوع والانقياد المطلق لله عز وجل ، فالمسلم الحقيقي هو من أسلم وجهه وأمره كله لله رب العالمين .

غير أن قضية التسليم المطلق في حياة المسلم وعقيدته وقناعاته تبلغ أوجها وذروة سنامها في مناسك وشعائر الحج.

فمذ أسلم الخليل إبراهيم (عليه السلام) وجهه لله وتل ابنه للجبين: " قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ "[1].

وحين نادته هاجر (عليها السلام) عندما تركها وولدها إسماعيل (عليه السلام) عند البيت الحرام بوادٍ غير ذي زرع

---

(١) الصافات : ١٠٢ – ١٠٥.

آنذاك ، ونادته يا إبراهيم : آلله أمرك بهذا ؟ فأجابها بأنه أمر الله ، فقالت وباطمئنان شديد : " إذن لا يضيعنا " [1].

وتتوالى مناسك الحج : طوافًا ، وسعيًا ، ورميًا ، ووقوفًا بعرفة ، ومبيتًا بمنى ، ومزدلفة ، ونحرًا ، وحلقًا أو تقصيرًا ، مما قد تبرز بعض حكمه وأسراره ، وتخفى بعض هذه الحكم والأسرار على كثير من الخلق ، لكن يبقى معنى التسليم المطلق لله أمرًا محوريًّا ومفصليًّا في فهم حكم الحج وأسراره ومراميه .

غير أن ذلكم الحاج الذي يدرك تلك المعاني ويعيشها في الحج بروحه بحق وصدق ينبغي أن تكون هذه المعاني الإيمانية حاكمة لحركة حياته كلها ، فيعيش بكل كيانه فاهمًا أن الأمر كله لله تعالى ، حيث يقول سبحانه : " مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى {واتخذ الله إبراهيم خليلا}، باب منه ، حديث ٣٣٦٤ .

لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "[1]. ويقول سبحانه : (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[2] ، ويقول سبحانه : " قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ "[3] ، فيعيش من يستمسك بالإيمان بالله ويحسن تفويض الأمر له – في ذل وانكسار لله ربِّ العالمين – عيشة راضية قوامها الرضا والتسليم والإيمان الراسخ الذي يمنح صاحبه القوة والصلابة في الحق وعميق الرضا بالقضاء

---

(١) فاطر : ٢.

(٢) الأنعام : ١٧ ، ١٨.

(٣) الزمر : ٣٨ .

والقدر ، فينال جزاء الشاكرين في النعماء والسراء ، وجزاء الصابرين في البأساء والضراء ، وهذا هو حال المؤمن كما حدثنا عنه نبينا الكريم (صلى الله عليه وسلم) .

*   *   *

رسالة سلام من المشاعر المقدسة

المسلم سلم مع نفسه ، سلم مع أهله ، سلم مع وطنه ، سلم مع الكون كله ، مع الحجر والشجر ، مع الحيوان والجماد ، سلم مع الإنسانية جمعاء ، لا يغش ، ولا يغدر ، ولا يخون ، ولا يكذب ، ولا يستحل الدماء ولا الأعراض ولا الأموال ، وقّاف عند حدود ربه ، يجده ربه حيث أمره ولا يراه حيث نهاه .

فالإسلام دين الرحمة والسلام ، دين لا يعرف الأذى ، فالمسلم الحقيقي هو من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم وأنفسهم ، ولما سئل نبينا (صلى الله عليه وسلم) عن امرأة صوامة قوامة غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، قال (صلى الله عليه وسلم) : " هِيَ فِي النَّارِ " [1] ، وهو القائل (صلى الله

---

(١) مسند أحمد، ج٢٠/ ص ٤٥٧ ، حديث رقم ٩٩٢٦ .

عليه وسلم) : " والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن" قالوا : من يا رسول الله ؟ ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "من لا يأمن جاره بوائقه" (١) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤذِ جَارَهُ" (٢) .

دين يحفظ للإنسان كرامته ، فينهى عن الغيبة ، والنميمة ، والتحاسد ، والتباغض ، والاحتقار ، وسوء الظن لهو دين عظيم .

دين يمنع الظلم والغش ، ولو مع أعدائه ، ويحرم سائر الممارسات الاحتكارية ، ويعمل على تحقيق الرحمة للإنسان والحيوان والجماد لهو دين عظيم .

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ، حديث رقم ٥٦٧٠ . وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بَيَانِ تَحْرِيمِ إِيذَاءِ الْجَارِ ، حديث رقم ١٨١ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، حديث رقم ٦٠١٨ .

دين ينهى عن كل ألوان الفساد والإفساد ، والتدمير والتخريب ، ويعصم الأموال والأعراض والأنفس لهو دين عظيم .

ونستطيع أن نقول : إن الإسلام قضية عادلة ودين عظيم ، وإنه وإن تعرض للهجوم من أعدائه فإن المخلصين من أبنائه قادرون بإذن الله (عز وجل) على تجلية الغبار عنه ، وعرضه عرضًا صحيحًا من خلال البلاغ الواضح المبين ، الفاهم لفقه المقاصد ، وفقه الواقع ، وفقه المتاح ، وفقه الأولويات ، فهمًا يؤهل صاحبه للوفاء بواجب هذا الدين العظيم بما يحمله لصالح الإنسانية جمعاء من سبل السعادة والرقي ، وما يحمله لمن يعمل به من خير الدارين : الدنيا والآخرة .

وإننا حقًّا قادرون على تقديم رؤية ونظرية متكاملة للسلم العالمي ، تقوم على أسس إنسانية خالصة ، تؤمن بحق الإنسان في حرية المعتقد وفي الحفاظ على دمه وعرضه وماله وفي الحياة الكريمة دون تمييز على أساس الدين أو

اللون أو الجنس أو العرق ، فكل الدماء حرام وكل الأعراض مصانة وكل الأموال محفوظة ، مع إيمان كامل بأن التنوع والاختلاف سنة من سنن الله الكونية الراسخة ، فيجب أن نتعاون في ضوء المشترك الإنساني ، وأن يحل الحوار والتواصل محل الصراع والتصادم .

ومن هنا من المشاعر المقدسة من عرفات الله نبعث رسالة للعالم كله بأن ديننا هو دين السلام ، ورسالتنا هي رسالة سلام ، فالإسلام فن صناعة الحياة لا صناعة الموت ، وهو دين رحمة للإنسانية جمعاء ، وقد علمنا هذا الدين السمح أن المسلم الحقيقي هو من سلم الناس كل الناس من لسانه ويده ، غير أنه لا يعني الانبطاح أو الاستسلام أو إعطاء الدنية في ديننا ، فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، وسيحق الله الحق بكلماته وينصر دينه ويعلي رايته بعز عزيز أو بذل ذليل ، وما ذلك على الله (عز وجل) بعزيز .

ولكن علينا أن نحقق العبودية الكاملة لله (عز وجل) والإيمان الكامل المتضمن الأخذ بأقصى الأسباب ، وساعتها

نصر الأمة وعزتها ورفعة شأنها كل ذلك متحقق لا محالة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : " وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ" [1] ، فهو النصر الحق شريطة الإيمان الحق ، فهمًا واعتقادًا وعملا وأخذًا بالأسباب وتسليمًا مطلقًا لله رب العالمين .

* * *

□

(1) الروم: ٤٧.

ماذا بعد الحج

العبادات مقصودة لذاتها ولحكم أخرى ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، يقول سبحانه : " إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ "(١) ، ويقول سبحانه : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (٢) فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له .

والعبادات إعداد وتأهيل لحمل الرسالة وعمارة الكون والحياة ، حيث يقول الحق سبحانه : " يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَ قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ

(١) العنكبوت : ٤٥.

(٢) الجمعة : ٩ ، ١٠.

أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً "[1] ، فإذا كان الإنسان في ليله في خلوة مع الخالق (عز وجل) فأمامه في النهار متسع طويل لعمارة الكون وصناعة الحضارة ، فالإسلام هو فن صناعة الحياة لا صناعة الموت ، ودورنا هو عمارة الدنيا بالدين لا تخريبها ولا تدميرها باسم الدين.

والحج مدرسة أخلاقية وتربوية عظيمة ، ولعل من أهم الدروس التي نتعلمها والتي ينبغي أن تستمر معنا من مدرسة الحج قضية التسليم المطلق لله (عز وجل) ، وتفويض الأمر لله ، والوقوف عند حدود الله ، وتعظيم شعائره ، وحرماته ، حيث يقول الحق سبحانه : " ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ" [2] ، ويقول سبحانه : "ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّم حُرُماتِ الله فَهُوَ خَير له عِندَ رَبِّهِ"[3] .

---

(١) المزمل: ١ – ٧.

(٢) الحج: ٣٢ .

(٣) الحج: ٣٠ .

فمن كان يعظم حرمات الله (عز وجل) في عرفة ومنى والمزدلفة ، وفي المسجد الحرام وفي السعي والطواف ، فعليه أن يستحضر هذا التعظيم لشعائر الله ، فالأمر أشمل وأعم ، فمن حج ورجع إلى بلده ولم يعد وقَّافًا عند حدود الله فما حج ولا اعتمر ولا استفاد بحج .

ومن علامات القبول الطاعة بعد الطاعة في حياته كلها ، فإذا عاد الحاج قانتًا مخبتًا منيبًا إلى الله تعالى ، يحب الخير للناس ، فذلك من علامات القبول ، أما إن عاد كما ذهب وعلى ما كان عليه من تقصير فأمره إلى الله وعليه مراجعة نفسه ، فعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت : "سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنْ هَذِهِ الآيَةِ : "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ"، قَالَتْ : أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ : " لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُمُ

الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ"[1].

ونقول لحجاج بيت الله الحرام : أمامكم بعد عودتكم وتوفيق الله لكم مهام عظيمة في خدمة دينكم وأوطانكم لا تقل جلالاً ولا كمالاً ولا ثوابًا عن ثواب الحج والعمرة ، وهي كساء العاري ، ومداواة المريض ، وقضاء حوائج الناس، وعمارة الكون ، زراعة ، وتجارة ، وصناعة ، وإيجاد فرص العمل وبخاصة أهل السعة واليسر منهم ؛ لنعمر دنيانا بديننا ، فنربحهما جميعًا .

* * *

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب التفسير ، تفسير سورة المؤمنون ، حديث ٣١٧٥.

الفهــرس

*   *   *